جرائم الإبادة الجماعية في ظل حكومة البعث الثانية (١٩٦٨-٢٠٠٣): الأسباب والنتائج

أ. م. د. سامي احمد صالح
الجامعة المستنصرية
كلية العلوم السياسية

أ. م. د. أيمن عبد عون
جامعة ديالى
كلية القانون والعلوم السياسية

ملخص البحث:

تميز النظام البعثي عن غيره من الأنظمة التي حكمت العراق، في تاريخه الحديث، بما ارتكبه من جرائم إبادة جماعية طالت الملايين من العراقيين على اختلاف مكوناتهم الإثنية، وفئاتهم الاجتماعية، ومشاربهم الفكرية والسياسية. ويتناول هذا البحث العوامل التي تسببت في إقدام رأس النظام البعثي ومعاونيه على ارتكاب جرائم بهذا المستوى الصارخ من البشاعة والوحشية.

وأولى البحث أهمية كبيرة لنظرية الأكاديمية الأميركية باربارا هارف Barbara Harff في التمييز بين مفهوم الإبادة الجماعية Genocide الذي يشير الى الجرائم التي تُرتكب بحق مجموعة من الناس بسبب انتمائهم الاثني ومفهوم الإبادة السياسية Politicide الذي يشير الى الجرائم التي ترتكب بحق مجموعة من الناس بسبب انتماءاتهم الأيديولوجية أو السياسية ومواقفهم من الأنظمة التي تحكم بلدانهم.

وبالاستناد الى عدد من النظريات في حقل العلوم الاجتماعية والسياسية، تمت صياغة ثلاث افتراضات حول مسوغات جرائم الإبادة الجماعية، بشقيها الاثني والسياسي، بالنسبة لمرتكبيها.

ذهبت الفرضية الأولى الى أن التكوين السيكولوجي والاجتماعي لقادة النظام لعب دورا أساسا في بشاعة الجرائم التي ارتكبوها بحق المعارضين لنظامهم. وركزت الفرضية الثانية على طبيعة الوضع السياسي الذي مر به البلد، بينما عزت الفرضية الثالثة تلك الجرائم الى أيديولوجية النظام الحاكم. واستنتج البحث إن الفرضيات الثلاث تصح جميعها في تحديد الدوافع التي وقفت وراء لجوء النظام البعثي الى ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية بحق شعبه.

Abstract

The Baathist regime was distinguished from other regimes which ruled modern Iraq, by the genocides that it committed against millions of Iraqis, regardless of their ethnic affiliation, social groups, and political backgrounds. This research deals with the factors that inspired the head of the Baathist regime and his aides to commit crimes of this blatant level of brutality.

The research paid a great attention to the theory of the American political scientist Barbara Harff which distinguishes between the concept of *genocide*, which refers to crimes committed against a group of people because of their ethnic affiliation, and the concept of *politicide*, which refers to crimes committed against a group of people because of their ideological or political affiliations, and their attitudes towards the regimes that govern their countries.

On the basis of a number of theories in the field of social and political sciences, three hypotheses were formulated about the justifying of both genocides and politicides, from its perpetrators' side.

The first hypothesis was that the psychological and social composition of the regime's leaders played a major role in the heinous crimes they committed against opponents of their regime. The second hypothesis focused on the nature of the political situation under which genocides were committed, while the third hypothesis attributed those crimes to the ideology of the ruling regime. The research concluded that all three hypotheses are valid in determining the motives behind the Baathist regime's resort to committing genocide against its people.

المقدمة: Introduction

في الثامن من شباط عام ١٩٦٣، تمكن البعثيون العراقيون من الإطاحة بحكومة الزعيم عبد الكريم قاسم والاستيلاء على السلطة عبر انقلاب عسكري استخدمت فيه كافة أنواع الأسلحة، الخفيفة منها والثقيلة. وحاول أنصار الزعيم ومحبوه أن يقاوموا الحركة الانقلابية، ولكن الماكنة العسكرية المتطورة للانقلابين وأساليبهم البشعة قضت على مقاومة الجماهير في غضون يومين أو ثلاثة بعد أن سالت الدماء في شوارع بغداد وساحاتها وأزقتها الفقيرة. واقترن ذلك الانقلاب ببيان رقم ١٣ الذي أصدره الحاكم العسكري رشيد مصلح والذي دعا بكل وضوح الى إبادة كل من يقف بوجه الانقلابين ويحاول الدفاع عن الزعيم قاسم. ولعل ذلك البيان هو أول بيان في تاريخ العراق الحديث يستخدم مصطلح الإبادة بدون لبس أو غموض. وتحولت الملاعب الرياضية والمدارس ودور السينما وقصر "الرحاب" الملكي الى مسالخ بشرية تفوح منها رائحة الدم واللحم البشري الممزق. وتشير معظم الدراسات التي تناولت أحداث الانقلاب الى سقوط اكثر من خمسة آلاف ضحية على يد عصابات ما عُرف بـ "الحرس القومي" البعثي في الأيام الثلاثة الأولى للانقلاب.

لم يصمد حكم "البعث" أكثر من تسعة اشهر فسقط، ولكن أحلام البعثيين بالعودة الى الحكم ظلت قائمة. فبعد أقل من خمس سنوات على سقوطهم تمكنوا، وبمساعدة قوى إقليمية ودولية، من العودة ثانية الى السلطة التي فقدوها بسبب دمويتهم واستهانتهم بدماء الجماهير. وفي الأشهر الأولى لانقلابهم الثاني (١٧-٣٠ تموز ١٩٦٨) حاول الانقلابيون إيهام الشعب بان انقلابهم هذه المرة انقلابٌ ابيض لا دماء فيه، وانهم تعلموا درس انقلابهم الأول. إلا أن الأيام جاءت بعكس ما ادّعى الانقلابيون. فمرة أخرى اكتظ قصر الرحاب أو "قصر النهاية" بمئات المعتقلين من بعثيين وقوميين وشيوعيين وأكراد، ونُصبت المشانق، وأُعدت ساحات تنفيذ أحكام الإعدام رميا بالرصاص. ورغم عدم إعلان البعثيين عن بدء حملات إبادة جماعية لمعارضيهم، فانهم مارسوها بشكل أكثر بشاعة ووحشية من المرة الأولى في عام ١٩٦٣، ولم تقتصر على حزب واحد أو حركة واحدة، بل شملت كل من شكّ الانقلابيون الجدد بولائه لنظامهم.

في مطلع سبعينيات القرن الماضي (أي بعد أقل من عامين على الانقلاب) تمت مصادرة الهوية الوطنية لآلاف من الأكراد الفيليين وتهجيرهم الى ايران بذريعة العمالة للنظام الإيراني الذي كان على علاقة سيئة بالنظام البعثي. ثم شنّ الجيش حربا لا هوادة فيها على الحركة الوطنية الكوردية التي اتهمها البعثيون بالوقوف على الضد من مصالح "الأمة العربية". ولكسب تلك المعركة تنازل النظام عن نصف شط العرب ومساحات شاسعة من أراض عراقية لشاه ايران مقابل التخلي عن مساعدة الأكراد في حربهم ضد النظام.

ولم تدم فرحة النظام البعثي بإخماد ثورة أيلول الكوردية سوى بضعة أشهر حتى اندلعت الثورة ثانية في أواخر سبعينيات القرن الماضي. ولم ينته ذلك العقد حتى انتصرت الثورة الإسلامية الشيعية في ايران، وتم الغاء النظام الملكي واستبداله بنظام جمهوري. وكان لهذا التغيير الهائل اثر كبير على القوى الشيعية العراقية، وخصوصا حزب الدعوة الإسلامية، الذي وجد في تلك الثورة ملهما قويا لمواصلة نضاله من أجل إسقاط حكم "البعث". وكمحاولة لتجنب تداعيات الثورة الإيرانية على المنطقة بشكل عام والعراق بشكل خاص، شن النظام البعثي حربا شاملة ضد الجارة ايران أملاً في إنهاء ثورتها. وبذا وجد البعثيون انفسهم في حربين شرستين؛ حرب داخلية ضد قوى المعارضة بأحزابها المختلفة، وحرب خارجية ضد ايران.

دامت الحرب العراقية الإيرانية ثمان سنوات وتخللتها العديد من الهزائم العسكرية للطرفين. فبعد تمكن الجيش العراقي من بسط سيطرته على مساحات شاسعة من الأراضي الإيرانية في بداية الحرب، تمكنت ايران من تحرير أراضيها وبسط سيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضي العراقية في السنين الأخيرة للحرب. وسعى النظام البعثي الى تبرير كل هزائمه العسكرية بـ "عمالة" الأحزاب الشيعية والكردية العراقية "للعدو الإيراني". ووجد في ذلك الاتهام ذريعة لشن حملات من الإبادة الجماعية البشعة ضد الشيعة والأكراد الذين يشكلون ما يقرب من ٨٠% من سكان العراق. ولم يتوان النظام عن استخدام كافة الوسائل، بما فيها الأسلحة الكيمياوية، لإبادة من اعتبرهم "عملاء" للأجنبي. ومذبحة حلبجة والأنفال خير دليل على ذلك.

وبعد هزيمة الجيش العراقي أمام قوات التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة لتحرير الكويت في عام ١٩٩١، اندلعت انتفاضة شعبية في ١٤ محافظة عراقية (عشر منها ذات أغلبية شيعية، واربع منها كوردية). ومرة ثانية اتهم النظام البعثي المنتفضين بالعمالة للأجنبي، وشنّ حملات أخرى من الإبادة الجماعية على سكان تلك المحافظات التي اعتبرها النظام حواضن للمتمردين. وان كان لحملات الإبادة الجماعية التي شنها "البعث" ضد شعبه ميزة تختلف عما حصل من عمليات إبادة جماعية في بلدان أخرى، فميزتها الأساس تكمن في شدة وحشيتها وبشاعتها. فما هي مصادر تلك الوحشية والبشاعة؟ وما هي مسوغاتها السياسية والفكرية؟

تلك وغيرها من الأسئلة هي موضوع هذا البحث.

إشكالية البحث (Problem Formulation)

لم تقتصر جرائم الإبادة الجماعية التي ارتكبها النظام البعثي، الذي حكم العراق بيد من حديد لما يقرب من خمس وثلاثين عاما، على مكون عرقي أو اثني واحد دون غيره، بل تعدته لتشمل معظم مكونات المجتمع العراقي. فقد تعرض آلاف من العراقيين الى حملات الإبادة تلك بسبب انتمائهم العرقي كما هو الحال مع الكورد. وآلاف أخرى بسبب انتمائهم المذهبي كما هو حال الشيعة، وآلاف بسبب انتمائهم الأيديولوجي أو السياسي كما هو الحال مع الشيوعيين وأعضاء ومناصري حزب الدعوة الإسلامية. وبذا تتمحور إشكالية هذا البحث حول الأسئلة التالية:

- ما هي الإبادة الجماعية، وما الفرق بينها وبين الإبادة السياسية؟
- ما هي المؤاخذات المسجلة على قانون الإبادة الجماعية الذي تبنته منظمة الأمم المتحدة في عام ١٩٤٩؟
- ما هي الدوافع التي وقفت وراء إقدام النظام البعثي في العراق على ارتكاب جرائم إبادة جماعية طالت مئات الآلاف من الأبرياء؟

منهجية البحث (Method)

يُعد هذا البحث بحثا نوعيا (Qualitative Research) طالما انه يستند في تحليله لظاهرة الإبادة الجماعية الى نظريات وافتراضات مسبقة حول هذه الظاهرة، ويتعامل مع نصوص نظرية وليس إحصاءات أو أعداد رقمية كما هو الحال مع البحث الكمي (Quantitative Research). ويتأتى الفرق بين المنهجين، كما يقول الباحث الأميركي بروس بيرغ (Bruce Berg)، من أن الكمية تعني مقدار الشيء، في حين أن النوعية تعني طبيعة الشيء وخصائصه. وبذلك تتناول البحوث النوعية التعاريف والصفات والمفاهيم والرموز المتعلقة بالأشياء، وتختص بالإجابة عن الأسئلة التي تبدأ بـ كيف، أين، ومتى، وليس بـ كم (Berg, 2001: 3).

وفي الوقت نفسه، يتبع البحث منهجا استدلاليا (Deductive Method) يتمثل بتوظيف المقدمات النظرية العامة في الوصول الى استنتاجات تفسر ظواهر خاصة. ومن الطرق الشهيرة في استخدام المنهج الاستدلالي في دراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية هي طريقة "الاستدلال الافتراضي" (Hypothetico-deductive Method) التي طورها الفيلسوف الألماني كارل بوبر (Karl Popper 1902-1994). وتتمثل تلك الطريقة بتقييم العلاقة بين المتغيرات

النوعية لظاهرة ما عن طريق صياغة افتراضات (Hypotheses) على ضوء نظريات تتناول الظاهرة المعنية واختبارها وفقا لمعطيات وملاحظات ميدانية، ومن ثم التمييز بين ما يصح من تلك الافتراضات عما لا يصح (Singleton, 1993: 54) .

ووفقا لهذا المنهج، سيتم تقسيم البحث الى فصول تتناغم مع الافتراضات المصاغة حول ظاهرة أو ظواهر الإبادة الجماعية الأثنية أو السياسية التي ارتكبت في عهد النظام البعثي البائد.

افتراضات البحث (Assumptions of the research)

تأسيسا على عدد من النظريات التي تناولت ظاهرة الإبادة الجماعية سيتمحور البحث حول اختبار الافتراضات التالية:

١. إن التكوين السيكولوجي لقيادة حزب البعث ومعاناتهم الحياتية والقيادية، هي التي سوغت لهم ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية.

٢. الإبادة الجماعية كانت خياراً عقلانياً (Rational Choice) اتخذته قيادة حزب البعث لتحقيق أهداف سياسية محددة، وبشكل خاص أثناء الحرب.

٣. التوجه الأيديولوجي لحزب البعث شكّل عاملا حاسما في لجوء قيادة الحزب الى ارتكاب جرائم الإبادة.

١. **الإطار النظري والمفاهيمي** (The Theoretical and Conceptual Framework)

١,١ مفهوم الإبادة الجماعية (**The Approach of Genocide**)

يعرف قاموس أكسفورد مصطلح "الإبادة الجماعية" (Genocide)، بأنه "القتل المتعمد لمجموعة كبيرة من الناس، وخاصة أولئك الذين ينتمون الى مجموعة عرقية أو إثنية معينة". وأول من استخدم هذا المصطلح هو المحامي اليهودي البولوني الأصل رافائيل ليمكن (Raphael Lemkin١٩٥٩ -١٩٠٠) الذي أباد النازيون عائلته. وما أثار اهتمام ليمكن بالمصطلح هو المذبحة التركية التي ارتكبها العثمانيون ضد مئات الآلاف من الأرمن خلال الحرب العالمية

الأولى. وعرف ليمكن "الإبادة الجماعية" بأنها "خطة منسقة لمختلف الإجراءات الرامية إلى تدمير الأسس الأساسية لحياة الجماعات الوطنية، بهدف إبادة الجماعات نفسها. وتتمثل أهداف هذه الخطة في تفكيك المؤسسات السياسية والاجتماعية، والثقافة، واللغة، والمشاعر الوطنية، والدين، والوجود الاقتصادي لتلك الجماعات، وتدمير الأمن الشخصي والحرية والصحة والكرامة، وحتى حياة الأفراد المنتمين إليها " (Lemkin, 1944: 79).

وبالإضافة إلى أنشطته الأكاديمية، أطلق ليمكن بمفرده حملة دبلوماسية لإقناع الأمم المتحدة، التي كانت قد شُكلت حديثا، بوضع معاهدة تحظر الإبادة الجماعية. ونجح في ذلك ووافقت الجمعية العامة على اتفاقية لمنع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها في عام ١٩٤٨ واعتمدتها بعد ثلاث سنوات، أي في عام١٩٥١. وعرّفت الاتفاقية ' الإبادة الجماعية' بأنها "كل عمل يهدف الى تدمير مجموعة إثنية أو عرقية أو دينية، كليا أو جزئيا". وحددت الاتفاقية الأعمال التي تشكل إبادة جماعية كما يلي:

- قتل أعضاء الجماعة.
- إلحاق ضرر جسدي أو معنوي جسيم بأفراد الجماعة.
- إخضاع الجماعة عمداً لظروف معيشية يقصد بها تدميرها المادي بشكل جزئي أو كلي.
- فرض إجراءات من شأنها منع الإنجاب داخل الجماعة.
- نقل أطفال المجموعة قسراً إلى مجموعة أخرى ..(Kuper, 2009: 409)

وقد تعرض تعريف الاتفاقية الى الكثير من الانتقادات من قبل عدة مفكرين، منهم الاكاديمي الأميركي باول وليامز Paul Williams (2013: 253) الذي توقف عند كلمة 'تدمير' وما يمكن أن تعنيه من معانٍ، ولماذا اقتصر مفهوم الإبادة الجماعية على المكونات الإثنية دون غيرها من المجاميع السياسية والفئات الاجتماعية؟ وقد حاول عدد من العلماء إعادة تعريف "الإبادة الجماعية" لتكون قادرة على تطبيقها على جميع أنواع الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية بغض النظر عن التوجهات العرقية أو السياسية للضحايا. فقبل بضع سنوات، ميزت باربارا هارف Barbara Harff (أستاذة العلوم السياسية في الأكاديمية البحرية الأمريكية في أنابوليس بولاية ماريلاند) بين نوعين من الإبادة الجماعية: إبادة ترتكب ضد جماعة بشرية بسبب انتماءها العرقي أو الديني أو المذهبي (Genocide) وإبادة ضد جماعة بسبب انتماءها الأيديولوجي أو السياسي (Harff, 2003: 57-73) (Politicide). ويسهم هذا التمييز بين نوعي الإبادة الجماعية في كشف وإدانة العديد من الحكومات والأنظمة التي تقمع شعوبها بشكل وحشي بسبب معارضتهم لسياساتها.

١,٢ نظرية الإبادة الجماعية (Theory of Genocide)

هناك منهجان شائعان في ميدان دراسة ظاهرة الإبادة الجماعية: الأول هو ما يطلق عليه المنهج المؤسساتي (Agency–oriented Approach) والثاني هو المفهوم البنيوي (Structure Approach). وتم تبني الأول من قبل مجموعة من العلماء الذين يحاولون تفسير هذه الظاهرة من خلال التركيز على الدور الذي تلعبه النخبة من صانعي القرار. فبعض أنصار هذا المنهج، مثل المؤرخ الألماني جيرالد فليمنج (Gerald Fleming, 1921–٢٠٠٦)، يركزون على دور قادة أفراد، مثل هتلر، وستالين، وبول بوت، وغيرهم. ويذهبون الى أن كبار صانعي القرار، لأسباب سيكولوجية وتجارب سابقة في الحياة والقيادة أو معتقدات أيديولوجية، يتخذون قرارات بإبادة مجموعات كاملة من الناس. وبالتالي، فإن هؤلاء القادة الأفراد هم المصدر النهائي لسياسات الإبادة الجماعية (.(Fleming, 1982

واعتمد باحثون آخرون، مثل البروفيسور بنجامين فالنتينو، (Benjamin Valentino (2004 والبروفيسور مانوس ميدلارسكي) Manus Midlarsky٢٠٠٥) ، نموذجًا مختلفا لدراسة الظروف التي يتخذ فيها ممثلو النخبة قرارًا بارتكاب الإبادة الجماعية. ووفقًا لهذا النموذج، تعتبر الإبادة الجماعية خيارًا عقلانيًا (Rational Choice) تقوم به النخب لتحقيق أهداف سياسية محددة، وهي ليست غاية في حد ذاتها، ولكنها وسيلة استراتيجية لتحقيق غاية. ومن خلال سعيها لتحقيق أهداف سياسية راديكالية، ترتكب النخب السياسية جرائم الإبادة الجماعية ضد مجاميع مستهدفة من أجل تحقيق أهداف سياسية محددة لا يمكن بلوغها بدون ارتكاب مثل تلك الجرائم.

أما المنهج الثاني (أي الهيكلي) فقد تم تبنيه من قبل مفكرين واكاديميين ذهبوا إلى أن المجتمعات التي تمزقها الانقسامات العرقية، أو الدينية، أو الاجتماعية–الاقتصادية، أو غيرها من الانقسامات معرضة على نحوٍ أكبر للإبادة الجماعية. وأحد هؤلاء العلماء، ليو كوبر Leo Kuper، الذي اعتبر الوجود المسبق لما أسماه "المجتمعات التعددية" ‘*plural societies*’ بمثابة "القاعدة الهيكلية للإبادة الجماعية" (.(Kuper, 1981: 57

وتركز تفسيرات ’هيكلية‘ أخرى على الترابط الوثيق بين طبيعة الأنظمة السياسية وسياسات الإبادة الجماعية. ومن مناصري هذا التفسير عالم الاجتماع الأميركي إيرفينغ هوروويتز (Irving Horowitz 1929–2012) الذي يؤكد على أن الإبادة الجماعية متأصلة في الأنظمة السياسية الشمولية، وذلك لأن تلك الأنظمة تحاول ممارسة سيطرة سياسية واقتصادية واجتماعية كاملة على جميع جوانب الحياة وعلى جميع أفراد المجتمع، وبالتالي فإن هذه الأنظمة تقوم بتصفية مجموعات كاملة من الناس الذين تعتبرهم حجر عثرة في طريقها نحو فرض سيطرتها (Horowitz, 1997)

بمساعدة هذه النظريات والافتراضات، سنقوم باختبار الفرضيات التي صيغت لتحديد العوامل التي تقف وراء ارتكاب النظام البعثي العراقي لجرائم الإبادة الإثنية والسياسة.

٢. عوامل الإبادة السياسية والإثنية

٢,١ العامل السيكولوجي (**Psychological Factor**)

يذهب الكثير من الباحثين الذين اهتموا بجرائم الإبادة الجماعية الى أن الحالة النفسية والاجتماعية للقادة والزعماء الذين يرتكبون تلك الجرائم تلعب دورا حاسما في ذلك السلوك الإجرامي. ولعل ما ساعد على انتشار تلك الفرضية هو الحالة النفسية والاجتماعية لاثنين من اشهر مرتكبي جرائم الإبادة الجماعية في القرن العشرين، وربما على مر العصور، وهما الزعيم النازي أدولف هتلر (Adolf Hitler 1889-1945)والزعيم السوفيتي .(Joseph Stalin ١٨٧٨-١٩٥٣) فعن الأول، يقتبس عالم النفس الأميركي وولتر لانجر (Walter Langer ١٨٩٩-١٩٨١) في كتابه: '*The Mind of Adolf Hitler: The Secret Wartime Report*' احدى عبارات هتلر من كتابه 'كفاحي' (Mein Kampf) يتحدث فيها عن طفولته ويقول: " عندما يتشاجر الوالدان يوميًا تقريبًا، لا تترك وحشيتهم شيئًا للخيال. ولا بد أن تكون نتائج مثل هذه التربية واضحة التأثير على الصغير وان جاءت متأخرة ". ويستنتج لانجر من ذلك أن قساوة العيش التي عاناها هتلر في صغره كان لها تأثيرها البالغ على شخصيته فيما بعد، ويعزز ذلك الاستنتاج بفرضية عالم النفس الشهير فرويد التي يؤكد من خلالها أن سنوات الطفولة الأولى التي يعيشها الإنسان هي التي تشكل شخصيته (Langer, 1972: 153) . كما وذكرت المؤرخة بريجيت هامان Brigitte Hamann أن هتلر كان يشكو، في صغره، من إدمان والده على تناول الكحول (.(Hamann, 1999: 12

وعن ستالين ذكر الباحث الروسي ديمتري فولكوغونوف أن طفولته كانت كئيبة ووالداه، القرويان الفقيران، عاشا في فقر سحيق، وكان والده، الإسكافي، يكثر من شرب الكحول وكثيرا ما ينهال على زوجته وابنه بالضرب (فولكوغونوف، ١٩٩٥-٢٥ :٢٦). وكتب 'إيريما شفيللي'، أحد أصدقاء ستالين في طفولته: "إن الضرب المبرح وغير المستحق الذي تلقاه الابن (ستالين) جعله عبوسا وقاسي القلب مثل أبيه" (دويتشر، ١٩٦٩: ٩).

وشكلت سيرة الدكتاتورين هتلر وستالين إغراءً لكثير من الباحثين لمقارنة صدام حسين(١٩٣٧-٢٠٠٦) بهم لوجود سمات مشتركة بين طفولتهم وطفولته، ولارتكابه أكبر جرائم الإبادة الجماعية في تاريخ العراق الحديث. فقد اجمع كل

الذين كتبوا عن طفولة صدام حسين على أنها كانت طفولة قاسية اتسمت بفقدانه لأبيه قبل ولادته ولتعرضه لمعاملة قاسية من قبل زوج أمه اضطرته الى ترك المنزل واللجوء عند خاله خير الله طلفاح (الزبيدي، ٢٠٠٣: ٢٥(٢٦-. ويقول مهدي حيدر أن عم صدام وزوج أمه كان يحتسي الخمر المصنوع من التمر ويتسلى بضرب صدام (حيدر، ٢٠٠٣ :٩). ويتفق عالم النفس الأميركي جيرالد بوست ((1934-2020) Jerrold Post)مع فرويد في أن السنوات الأولى من حياة الإنسان تمثل عاملا حاسما في بناء شخصية محترمة، ويستنتج بناءً على ذلك أن المعاملة السيئة التي يتلقاها الطفل في سني حياته الأولى قد تكسبه صفات اليأس والسلبية وفقدان الأمل فيما بعد. ولكنها، في الوقت ذاته، قد تؤدي الى ما يُطلق عليه "العظمة التعويضية" وروح الانتقام من الماضي بالإصرار على عدم الخضوع لأية سلطة أو قوة، وهكذا كان التطور السيكولوجي لصدام حسين (Post, 2003: 337).

ويقول صلاح عمر العلي، احد قادة انقلاب البعث الثاني في عام ١٩٦٨، ومن مدينة تكريت التي ينتمي اليها صدام حسين: "الذين عرفوا إبراهيم الحسن (الزوج الثاني لصبحة أم صدام) يقولون انه صاحب شخصية شريرة لا حدود لمشاعر القسوة فيها .لم يحمل إبراهيم أي مشاعر ود لابن صبحة. عامله بعداء مفرط وكان يضربه بلا رحمة على رغم صغر سنه. ربما هنا يمكن تفسير بعض ملامح صدام .ولد في قرية يمتاز أهلها بالقسوة ويحتكمون الى القوة لتصفية الخلافات بينهم .وصبي يتيم عامله زوج والدته بالتهديد والضرب المبرح. ولعل الصغير (صدام) استنتج أن العالم لا يرحم وأن على المرء أن يكون قويا الى درجة مبادرة الآخرين بالأذى" (شربل، ٢٠١٠: ٢٥٢-٢٥٣) .

ولم يكتف صدام بالكثير الذي كُتب عنه بدافع الرغبة في المال أو تجنب الأذى، فقام هو بنفسه بكتابة تاريخه ليؤكد بما لا يدع مجالا للشك معاناته من عقد نفسية بسبب ماضيه. فقد ابتدأ رواية ’رجال ومدينة‘ التي كتبها بنفسه، أو كُتبت له، بعبارة: "من جوف ليل بهيم، ومعاناة روح وجسد، وإصرار على نيل المطالب، تحديا للبغي والطغيان، خرج فارس مغوار غير هيّاب، يلوح للمجد لكي يدنو منه". [١]

ويؤكد صلاح عمر العلي أن صدام قرأ سيرتي لينين وستالين وأحب ستالين (شربل، ٢٠١٠: ٣٠٧)، ولا شيء يجمع بين الاثنين (ستالين وصدام) سوى عدم التردد في ارتكاب الجرائم مهما بلغ حجمها من اجل الحفاظ على السلطة. وأكد ذلك صدام بنفسه حين قال في اجتماع لقيادة الحزب والدولة: " أي شخص يقف في وجه الثورة، حتى لو كانوا

---

[1] بحث للدكتور محمد مجيد بعنوان "القسوة لدى صدام حسين" منشور على الرابط: http://www.noor-book.com ص. ٤١

ألفاً، ألفين، ثلاثة آلاف، عشرة آلاف، سأقطع رؤوسهم بدون أن تهتز شعرة من رأسي أو يهتز قلبي من أجلهم".[٢] ويقول الدكتور جيرالد بوست، أستاذ علم النفس والسياسة في جامعة جورج واشنطن: " صدام لا يعاني من مرض الجنون، ولكنه يعاني من نرجسية مريضة وهذه الظاهرة تتمثل بجنون العظمة، والتلذذ بتعذيب الغير، والميل الشديد للشك، وعدم وجود أي شعور بالندم". وتنبأ صالح مهدي عماش احد ابرز قادة "البعث" في انقلابي شباط ١٩٦٣ وتموز ١٩٦٨ بمستقبل العراق في ظل صدام حين قال لزميله وزير التخطيط الأسبق جواد هاشم: " لو انفرد صدام بالحكم فستسيل الدماء انهارا. إنه شخص دموي خطير. رئيس عصابة لا اكثر ولا أقل" (شربل، ٢٠١٠: ٤٧٤).

ولم يكن صدام حسين هو الوحيد الذي انعكست معاناة سني طفولته وشبابه على أدائه السياسي حين تسلق هرم السلطة بعد انقلاب تموز ١٩٦٨، بل كان هذا هو شأن الكثير من الذين اعتمد عليهم صدام حسين في بناء وتطوير أجهزته الأمنية والمخابراتية، ومن الذين لم يترددوا في تنفيذ كل سياساته الإجرامية ضد شعبه وشعوب البلدان المجاورة. فعلى سبيل المثال، عزة الدوري وطه الجزراوي هما من اكثر الشخصيات البعثية ولاءً لصدام، وتسنما ارفع المناصب في الدولة، حيث كان الأول نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة والثاني نائبا لرئيس مجلس الوزراء عند انهيار حكم البعث، وهما شخصيتان لا يمتلكان من المواهب فقد كان عزة الدوري، قبل انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، بائع ثلج ولا يحمل أي شهادة. وفي لقاء له مع الصحفي غسان شربل وصفه الفريق الأول الركن نزار الخزرجي بانه " تابع ذليل لرأس النظام" (شربل، ٢٠١٠: ٣٦٢). وعن طه الجزراوي يقول جواد هاشم وزير التخطيط الأسبق في عهدي البكر وصدام: " شخصية غريبة الأطوار: خليط من وقاحة وغرور وإحساس داخلي بالضآلة والدونية. شخصية غريبة ومريضة حتما. لا يضحك أبداً ولا يعرف روح النكتة ومعناها، وكان يثير النفور بسبب غلظة طباعه وميوله العدوانية (هاشم، ٢٠١٧: ١٦٢). أما حسين كامل وعلي حسن المجيد اللذان كانا لفترات طويلة أذرع صدام الضاربة والمنفذة لكل سياساته العدوانية، فهما الآخران لا يمتلكان شيئا من مقومات القيادة سوى الانصياع المطلق لأوامر الرئيس الذي أتى بهما الى السلطة ومنح كليهما رتبة فريق أول ركن بعد أن كانا مجرد جنديين عاديين في الجيش. ولعب نجلا الرئيس صدام (عدي وقصي) دورا كبيرا في سياسات نظام أبيهما وهما لا يزيدان عن ابني عمومتهما (حسين كامل وعلي حسن المجيد علما وكفاءة). فعدي كما يصفه الفريق نزار الخزرجي شخص غير متوازن، وشقيقه قصي يمتاز بطبع قاس ولا يتورع عن ارتكاب الجرائم، وكان قد تدرب على القسوة والإجرام منذ سني مراهقته على يد والده ويد سعدون شاكر رئيس جهاز المخابرات (شربل،

---

[٢] عبد الرحمن مظهر الهلوش، "ما لم يسجله التأريخ" ، جريدة القدس العربي، أيلول ٤، ٢٠٢١.

٢٠١٧: ٣٦١-٣٦٢). ولا يختلف اخوة صدام (برزان ووطبان وسبعاوي) عن أبناء صدام وأبناء عمومتهم في سلوكهم الإجرامي وغلظة طباعهم.

وجاءت جرائم الإبادة السياسية والإثنية لنظام البعث امتدادا طبيعيا للنهج الذي اختطه مجرمو الحزب الأوائل منذ أيام نشاطاتهم السرية من أمثال ناظم كزار وخالد طبرة وحسن المطيري وعمّار علوش وغيرهم من مؤسسي وقادة ما يُعرف بجهاز "حُنين"، وهم كما يصفهم الباحث حسين الهنداوي، مجموعة من أعتى القتلة والسفاكين والمنبوذين من قبل المجتمع.[٣] فقد ذكر عزيز محمد السكرتير الأسبق للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي أن ناظم كزار، على سبيل المثال، اشتهر بتناوله لوجبة غداء من الكباب واستمتاعه بها في الوقت الذي تضغط قدمه على رقبة سجين يحتضر بسبب التعذيب في معتقل "قصر النهاية".[٤] كما واشتهر ناظم كزار بقيامه باستجواب المعتقلين بنفسه وإطفاء سجائره في عيونهم عند عدم اقتناعه بإفاداتهم (مكية، ٢٠٠٩: ٥٠). هذه الحقائق التي ذكرها وأكدها الكثير من الباحثين الذين تناولوا شخصية صدام حسين والمحيطين به تفسر جانبا كبيرا من سلوكهم إزاء القوى والأشخاص المعارضين لنظامهم. فلم يكن رأس النظام السابق ومعاونيه يكتفون بالتخلص من مناوئيهم عن طريق الإبادة الجسدية وحسب، بل كانوا يتفنون في إيجاد السبل التي تنفذ بها تلك الإبادة. وهذا ما ينم بشكل واضح وصريح عن عقد سيكولوجية متأصلة في تركيبة شخصياتهم وأنماط سلوكم. فقد ذكر الكثير من المعتقلين السياسيين في الشعبة الخامسة الواقعة على ضفاف نهر دجلة في بغداد، على سبيل المثال، أن المعتقل كان يضم مفرمة للحم تتصل بالنهر وتقوم بفرم أجساد المعدومين وتحويلها الى غذاء للأسماك.[٥] ويذكر وليد محمد الجنابي القيادي السابق في حزب "البعث" وعضو اللجنة التحقيقية في "قصر النهاية"، أن ناظم كزار مدير الأمن العام للفترة ١٩٦٩-١٩٧٣ استدعاه ذات يوم الى مكتبه وطلب منه بحضور صدام حسين وعبد الكريم الشيخلي أن يذهب الى مستشفى التويثة لإحضار عدد من مرضى السل الميؤوس من شفائهم. وعند إحضارهم طُلب منهم أن يبصقوا في أفواه عدد من المعتقلين السياسيين لنقل العدوى لهم وقتلهم بشكل بطئ بعد اطلاق سراحهم. [٦]

---

[٣] حسين الهنداوي، "قصر النهاية.. الرمز الأكبر لفاشية البعث"، مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي، ٢٠١٣ / ٧ / ١٩

[٤] جريدة "الشرق الأوسط" اللندنية، العدد ١٤٠٦٦، ٢ حزيران ٢٠١٧

[٥] John Simpson, **Torture testimony at Saddam trial,** BBC World News, December 5, 2005. Available at:
BBC NEWS | Middle East | Torture testimony at Saddam trial

[٦] محمد مجيد، مصدر سابق، ص. ص. ٥٣٢-٥٣٣

لا شك في أن جرائم الإبادة السياسية والإثنية قد حدثت في بلدان كثيرة وفي أزمنة كثيرة، إلا أن ما يميز جرائم الإبادة التي ارتكبها البعثيون بحق العراقيين، من مختلف الانتماءات العرقية والدينية والأيديولوجية، هي أنها كانت تضم بين طياتها حقد دفين، على الضحايا، ينم بشكل سافر عن العقد النفسية التي كانت تستولي على مرتكبيها. فلم تكن عمليات الاغتصاب الجنسي، على سبيل المثال، تفارق تلك الجرائم. وكثيرا ما كان تعذيب الأطفال الرضع يستخدم وسيلةً لانتزاع الاعترافات من المعتقلين قبل تصفيتهم. وكثيرا ما كان يُرغم ذوي الضحايا على دفع ثمن الرصاصات التي تخترق أجساد أبنائهم، لا بسبب ارتفاع تلك الأثمان، بل بسبب رخص الضحايا في نظر المجرمين. وبذا كان للعامل السيكولوجي لقادة "البعث" ولرجال أجهزتهم الأمنية دور أساسي في إضفاء صور البشاعة على ما ارتكبوه من جرائم إبادة بحق عشرات الآلاف من أبناء شعبهم.

٢,٢ الخيار العقلاني (Rational Choice)

تفترض نظرية "الخيار العقلاني" أن الأفراد يميلون الى اختيار ما ينسجم مع مصالحهم ورغباتهم. وقد استُخدم هذا الافتراض في مجال الاقتصاد أولا، ثم تم توظيفه سياسيا ليشمل القادة والأحزاب وكذلك الدول.[٧] ويجب ألاّ يُفهم من هذا أن الأفراد والجماعات والدول تختار الصحيح دائما. فكثيرا ما يختار المرء ما يضره معتقدا انه يختار ما ينفعه، ويسري ذلك على الأحزاب والحركات السياسية والدول أيضا. ولا يشذ حزب "البعث" عن هذه القاعدة. فتاريخه يضج بجرائم إبادة، اعتقد الكثير من قادته وما يزال البعض منهم يعتقد أنها كانت الخيار الأمثل في المراحل التي ارتُكبت فيها، ومذكرات العديد من قادة "البعث" تذهب الى ذلك. فعلى سبيل المثال، أصر الكثير من قادة انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الدموي على اعتبار ذلك الانقلاب ثورة قامت من أجل تحقيق الاستقرار والرفاه للشعب العراقي والانضمام الى جمهورية عبد الناصر العربية المتحدة. واطلق بعض زعماء الانقلاب، من أمثال حازم جواد وطالب شبيب واحمد حسن البكر، اسم "عروس الثورات" على المجازر الدموية التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المواطنين المحبين والمناصرين للزعيم عبد الكريم قاسم (العلوي، ١٩٩٠: ٢٤) .

---

٧ Encyclopedia “Britannica”: https://www.britannica.com/topic/rational-choice-theory

تأسس حزب "البعث" في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي في سوريا، وأصبح له فرع في العراق بعد ذلك ببضع سنين. وحين قامت مجموعة من "الضباط الأحرار" بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم بإسقاط الحكم الملكي وإقامة نظام جمهوري بديل عنه، لم يكن لحزب "البعث" دور كبير في الحياة السياسية بسبب التواجد الجماهيري الكبير للحزب الشيوعي العراقي وأحزاب أخرى. ويرى حسن العلوي، أحد بعثيي عقد الخمسينيات من القرن الماضي، أن النظام الملكي نفسه غّض الطرف عن تأسيس ونشاطات حزب "البعث" العراقي لانه وجد فيه قوة مناهضة لقوة الشيوعيين المتصاعدة في تلك الفترة، بل أن النظام الملكي كان على استعداد لإقامة تحالف مع حزب "البعث" لو قُدر له أن يحكم العراق فترة أطول (العلوي: ١٩٩٠: ٢١).

مثّل وصول حزب "البعث" الى السلطة في انقلاب ٨ شباط علامة فارقة في تاريخ العراق الحديث. فللمرة الأولى منذ تأسيس الدولة العراقية يشهد العراق جرائم إبادة جماعية على هذا النحو من القسوة والبشاعة التي طالت عشرات الآلاف من العراقيين على أيدي ميليشيا "الحرس القومي" الذي أسسه البعثيون للدفاع عن نظامهم وقتل كل من يعارضه باي شكل من الأشكال. ويصف الفريق الركن حسن البيضاني ما قام به "الحرس القومي" بقوله: "مارست ميليشيا الحرس أعمال القمع والقتل وترويع المواطنين في الفضاء العام وتحولت مقارها الى معتقلات رهيبة تجري فيها أعمال التعذيب والاغتصاب وباتت عبئا ثقيلا على الحياة وحتى على مؤسسات الدولة (البيضاني، ٢٠٢٠: ١١٩). ولعل ابرز شاهد على جرائم الإبادة السياسية التي ارتكبها بعثيو شباط ١٩٦٣ هو بيان رقم ١٣ الذي أصدره الحاكم العسكري آنذاك، رشيد مصلح التكريتي، والذي نصّ على: " نظراً لقيام الشيوعيين عملاء وشركاء عبد الكريم قاسم بمحاولات يائسة لإحداث البلبلة بين صفوف الشعب وعدم الانصياع للأوامر والتعليمات الرسمية، تقرر تخويل القطعات العسكرية وقوات الشرطة والحرس القومي بإبادة كل من يتصدى للإخلال بالأمن، وإننا ندعو جميع أبناء الشعب المخلصين بالتعاون مع السلطة الوطنية بالإرشاد عن هؤلاء المجرمين والقضاء عليهم".[٨] وبذا يكون حزب "البعث" أول حزب عراقي يستخدم مصطلح "إبادة" رغم كل ما يحمل هذا المصطلح من قسوة وبشاعة.

لم يستطع البعثيون الحفاظ على سلطتهم لأكثر من تسعة شهور بسبب الممارسات الإجرامية لميليشيا "الحرس القومي". ففي تشرين الثاني من نفس العام الذي قاموا فيه بانقلابهم، قام الرئيس عبد السلام محمد عارف بإزاحتهم عن

[٨] زكي فرحان، "عراق الانقلابات: بيان رقم ١٣"، الحوار المتمدن، العدد ٣٧٣٢، ٢٠١٢/٥/١٩

السلطة. إلا أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة تضافرت من أجل عودتهم اليها مرة أخرى في ١٧ تموز عام ١٩٦٨ عبر انقلاب تم بتواطؤ وتآمر مجموعة من الضباط الكبار الذين وضع الرئيس عبد الرحمن عارف ثقته الكبيرة بهم.

ورغم إعلان البعثيين عن أن انقلابهم الجديد كان انقلابا ابيضا لم ولن تسيل فيه الدماء كما حصل في انقلابهم الأول عام ١٩٦٣، قاموا منذ الأسابيع الأولى لوصولهم الى السلطة بعمليات تصفية جسدية لكل من شكّوا في ولائه لانقلابهم. ولعل من مفارقات ذلك الانقلاب أن التصفيات والصراعات طالت قادته قبل أن تطال معارضيه. فقد تم بدأ مسلسل الاغتيالات بأول وزير خارجية في النظام الجديد، ناصر الحاني، الذي عُثر عليه مقتولا في بغداد بعد اقل من أربعة اشهر على نجاح الانقلاب. وفي أواسط عام ١٩٦٩ بدأت حملة منظمة ومدروسة بشكل دقيق لتصفية المئات من المشكوك في ولائهم للانقلابين الجدد بعد أن وُجهت لهم تهم العمالة والتجسس لجهات أجنبية. ولكي تحقق السلطة هدفها الأكبر في بث الرعب بين أوساط الشعب، قامت بتعليق جثث المعدومين في مشانق نُصبت في ساحة التحرير، وتكررت تلك المشاهد مرات عديدة لتؤدي غرضها في إبراز القبضة الفولاذية للنظام البعثي.

ولكن التصفيات الداخلية لم تمنع النظام من محاولات القضاء على خصومه السياسيين من بقية الأحزاب والحركات. واتخذ الانقلابيون من "قصر الرحاب" الملكي، الذي اصبح يُعرف لاحقا باسم "قصر النهاية"، ميدانا لتصفية خصومهم. ففي عام ١٩٧١ نشر الحزب الشيوعي العراقي قائمة بأسماء ٤١٠ من أعضائه تمت تصفيتهم جسديا في قصر النهاية (مكيّة، ٢٠٠٩: ٥١). وإذ برر الكثير من قادة انقلاب شباط ١٩٦٣ حملات الإبادة الجماعية ضد الشيوعيين بالانتقام لأحداث كركوك والموصل التي راح ضحيتها عدد من البعثيين والقوميين، لم يستطع انقلابيون تموز ١٩٦٨ تبرير إبادة الشيوعيين مرة أخرى في قصر النهاية.

وفي أواسط عقد السبعينيات من القرن الماضي، خفّت حدة القمع الذي مارسه نظام "البعث" ضد الحركات السياسية الأخرى بعد أن تم التوقيع على ميثاق الجبهة الوطنية مع الشيوعيين وأحزاب كوردية أراد لها النظام أن تمثل الشعب الكوردي. إلا أن القمع عاد بوتائر أقوى بكثير في أواخر العقد نفسه وعلى وجه الخصوص بعد نجاح الانقلاب الشيوعي في أفغانستان وانتصار الثورة الإسلامية الإيرانية بقيادة الإمام الخميني، وتصاعد حدة الثورة الكوردية التي تراجعت بعد اتفاق الجزائر ١٩٧٥ مع شاه ايران، وإزاحة الرئيس البكر من السلطة واستحواذ صدام حسين على كل مناصبه الرسمية والحزبية. فقد تعرض الشيوعيين الى حملات قاسية من التصفيات الجسدية تسببت في تشتيت شملهم ولجوء الكثير منهم الى جبال كوردستان أو سوريا والدول الاشتراكية في ذلك الحين. وتعرض حزب الدعوة الإسلامية الى حملات إبادة

سياسية كلفته الآلاف من أعضائه ومناصريه وفي طليعتهم مؤسسه السيد محمد باقر الصدر الذي أُعدم مع شقيقته بنت الهدى في عام ١٩٨٠، وكثف النظام من حملاته العسكرية ضد مواقع الثوار الأكراد.

وجاءت الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) لتُصعّد من وتائر عنف النظام البعثي ضد كل الحركات السياسية المعارضة لسياساته العدوانية في الداخل والخارج على حد سواء. وحاول إعلام النظام البعثي تسويغ جرائم الإبادة السياسية التي ارتكبها ضد معارضيه بذرائع الدفاع عن الوطن ضد الأطماع الخارجية، وقطع دابر "العملاء" و "الخونة" المتعاونين مع القوى الأجنبية التي تريد بالعراق "شرا". واكثر ما كان يخشاه النظام على بقائه في تلك الفترة هو حزب الدعوة الإسلامية. ويأتي ذلك لعدة أسباب، أهمها هو تمتع حزب الدعوة بجماهيرية واسعة لا ينافسه عليها حزب آخر في أوساط الشيعة الذين يمثلون ما يقرب من ٦٠% من سكان العراق. فقد استطاع الحزب أن ينظم نشاطات وتظاهرات شعبية أربكت النظام الحاكم لا سيما تلك التي عُرفت بالمبايعة والتي تمثلت بوفود ضمت عشرات الآلاف من أعضاء ومناصري الحزب واتجهت الى النجف الأشرف، في الثاني والعشرين من أيار عام ١٩٧٩، لإعلان بيعتها للسيد محمد باقر الصدر إماما وقائدا، ثم تلك التي أعقبت اعتقاله الأول في شهر حزيران من عام ١٩٧٩ (البيضاني، ٢٠٢٠: ٢٢٠). ومنحت الثورة الإسلامية في ايران دعما معنويا هائلا للحزب الذي يسعى هو الآخر لإقامة نظام إسلامي في العراق، ووفرت ملجأً آمنا للمئات من أعضائه، وسعت الى تأسيس معسكرات قتالية تابعة للحزب على أراضيها المجاورة للحدود العراقية. كما وان إسلوب العمليات الانتحارية الذي لا يتوانى الحزب عن استخدامه في حين تمكنه منه جعل منه قوة خطرة تقلق النظام البعثي، وهذا ما حدا بالنظام الى سلوك أعنف السبل وأكثرها بشاعة من أجل القضاء على الحزب أو تهميشه على أقل تقدير. فقد اتسم رد النظام على محاولة اغتيال رأسه في مدينة الدجيل عام ١٩٨٢، على سبيل المثال، ببشاعة مفرطة. فعلى الرغم من قتل من قام بالمحاولة في الحال، شنت قوات النظام حملة اعتقالات واسعة في المدينة شملت كل من اشتُبه بعدم ولائه للسلطة. ولم تستثن الحملة لا أطفالا ولا نساءً ولا شيوخ. وبعد شهور من التعذيب الوحشي في سجون المخابرات، أصدرت "محكمة الثورة" أحكاما بإعدام ١٤٨ متهما (بينهم عدد كبير لا تتجاوز أعمارهم الرابعة عشرة) ونفي عشرات العوائل الى صحراء ليّا في محافظة المثنى لأكثر من أربعة أعوام. وقد ورد في كتاب المكتب الخاص لوزارة الداخلية المرقم ١٥٢٢ بتاريخ ١٩٨٢/٨/٢٨ أن عدد العوائل المحجوزة من أهالي بلد هو ٨٨ عائلة تضم ٦٢٩ فردا، ومن أهالي الدجيل ٦٨٧ فردا بينهم ٣٩٤ من النساء والأطفال.[٩] واحتفل البعثيون في

---

[٩] محمد مجيد، مصدر سابق، ص. ٧٢٦

الذكرى العشرين لانقلاب شباط ١٩٦٣ بقتل ٧٠٠ (سبعمائة) معتقل من حزب الدعوة في قاعة واحدة من قاعات مديرية الأمن العامة (البيضاني، ٢٠٢٠: ٢٢٥).

الأحزاب الكوردية هي الأخرى اتُهمت من قبل النظام البعثي بخيانة الوطن والعمالة لإيران. وظل ذلك النظام على مدى العقود التي حكم فيها العراق ينظر الى تلك الأحزاب كطابور خامس يعمل من أجل تمكين "الفرس" من احتلال العراق والقضاء على "نهضته". واعرب عن ذلك رأس النظام (صدام حسين) صراحة حين قال: "يبدو أن أبناء مصطفى البرزاني أوغلوا في الخيانة الى حد عدم القدرة على التراجع، واصبحوا عون جيش الفرس وأدلائهم لاحتلال أرض العراق".[١] وعليه شكلت عملية القضاء على الأحزاب الكوردية وتفتيت قواعدها الجماهيرية أحد الأهداف الاستراتيجية للنظام البعثي. ولم يتوان الزعماء البعثيون عن قمع الحركة الوطنية الكوردية وان كان ثمن ذلك إبادة الآلاف من المواطنين الأبرياء وحرق قراهم ونفيهم الى الصحارى والبوادي البعيدة. ويكفي دليلا على همجية وبشاعة جرائم الإبادة الجماعية ضد الكورد ما اعترفت به مؤسسات النظام نفسه والتي تحدثت عن تدمير ١٢٧٦ قرية بالكامل خلال ما أُطلق عليه "عمليات الأنفال". وبذا يزيد عدد القرى الكوردية المدمرة في خلال حكم حزب "البعث" على ٣٥٠٠ قرية، أو ما يعادل ٨٠% من مجموع قرى إقليم كوردستان العراق (مكيّة، ١٩٩٤: ١٥٩). ويكفي دليلا على وحشية منفذي جرائم "الأنفال" ما قال علي حسن المجيد عن المؤنفلين أمام مجموعة من معاونيه في كركوك يوم ٢٩ كانون الثاني ١٩٨٩:

" الاهتمام بهم يعني دفنهم بالجرافات... هذا ما تعنيه كلمة الاهتمام بهم. بدأت بتوزيعهم على المحافظات ومن هناك جعلت الجرافات تروح وتجيء فوقهم بلا توقف" (البيضاني، ٢٠٢٠: ٢٤٥-٢٤٦).

وتفوق النظام البعثي على كل الأنظمة الفاشية والقمعية التي سبقته على مختلف مشاربها الفكرية والسياسية في كونه أول نظام يستخدم أسلحة تدمير شامل ضد مواطنيه. فلم يذكر التاريخ، لا القديم منه ولا الحديث، نظاما قتل شعبه بأسلحة كهذه سوى نظام "البعث". فبعد تمكن الجيش الإيراني من احتلال مدينة حلبجة في أوائل آذار من عام ١٩٨٧، قام النظام البعثي برد انتقامي وحشي ضد أهالي المدينة لاعتقاده بتواطؤهم مع القوات الإيرانية. وتمثّل الرد البعثي بقصف حلبجة بالسلاح الكيمياوي. وعن تلك المجزرة يقول اللواء الركن وفيق السامرائي، مدير الاستخبارات العسكرية الأسبق، أن خمسين طائرة هجوم أرضي، تحمل الواحدة منها أربع قذائف بزنة خمسمائة كيلوغرام من المواد الكيمياوية شنت هجوما على المدينة لتبيد خمسة آلاف من مواطنيها (السامرائي، ١٩٩٧: ٩٨).

---

[١] جريدة الجمهورية، ١٩٨٣/٩/١٣

وتوج النظام البعثي جرائم الإبادة الجماعية ضد الشيعة والأكراد في رده الوحشي على الانتفاضة التي اندلعت في أربعة عشر محافظة عراقية في أعقاب هزيمة الجيش العراقي في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١. فقد أدى القمع الوحشي لتلك الانتفاضة الى مصرع عشرات الآلاف من سكان المناطق ذات الأغلبيتين الشيعية والكردية وتدمير مئات القرى وتجفيف آلاف الكيلومترات المربعة من الأهوار وحرق الملايين من أشجار النخيل.

ولم تسلم المناطق ذات الأغلبية السنية، هي الأخرى، من حملات الإبادة الجماعية. فعلى إثر المحاولة الانقلابية التي عُرفت باسم محاولة اللواء محمد مظلوم الدليمي قام النظام بإعدام عشرات الضباط من مدينة الرمادي فانتفض مواطنو المدينة، وجاء الرد قاسيا من قبل السلطات المحلية هناك فسقط العشرات من القتلى (البيضاني، ٢٠٢٠: ٣٢٧).

يستنتج المتتبع لسجل جرائم الإبادة الجماعية التي ارتكبها النظام البعثي، منذ انقلابه الأول في شباط عام ١٩٦٣ وحتى سقوطه في نيسان عام ٢٠٠٣، أن تلك الجرائم لم تقتصر على مكون إثني واحد دون غيره، ولا على طائفة دينية دون غيرها، بل شملت العراقيين بمختلف مكوناتهم، وطوائفهم، وأحزابهم، ومناطقهم. فقد أُبيد عرب شيعة وعرب سُنة، وكورد فيليين وكود شماليين وان اختلفت أعداد المبادين ووسائل إبادتهم. وهذا يعني أن النظام البعثي كان يبيد كل من يقف في طريق استيلائه على السلطة أو الاحتفاظ بها مهما كان انتماؤه العرقي أو الديني أو الطائفي.

٢,٣ العامل الأيديولوجي Ideological Factor))

الأيديولوجية هي مجموعة من الأفكار المترابطة على نحو يشكل قاعدة لعمل سياسي منظم بغض النظر عمّا اذا كان هذا العمل يهدف الى تعديل، أو الغاء، أو الحفاظ على النظام القائم. وكلما ازداد ترابط الأفكار قوة ازدادت الأيديولوجية تماسكا وقدرة على التغيير. وبناءً على هذا التعريف يكون أمام جميع الأيديولوجيات ثلاث مهام: ١. تقييم الوضع السياسي الراهن، ٢. طرح بديل نظري للمستقبل، ٣. تحديد الطريق الذي يتعين سلوكه لتحقيق البديل .(Heywood, 2013: 28)ولا تكاد تشذ أيديولوجية "البعث" عن هذا التعريف. فهي مجموعة من الأفكار تدور حول ثلاثة محاور أو أهداف: ١. الوحدة (أي السعي الى توحيد الأمة العربية في بلد واحد)، ٢. الحرية (وتعني تخليص الأمة من الاستعمار والقوى التي تريد بها شرا) و٣. الاشتراكية (وتعني رفع الظلم والمعاناة عن الطبقات الفقيرة في المجتمع). ويصر مؤسس الحزب وواضع هذه الأيديولوجية، ميشيل عفلق، على أن هناك ترابط عضوي وثيق بين تلك

الأهداف أو المحاور، إلا أن تجربتي "البعث" في سوريا والعراق أثبتتا عكس ذلك تماما. فضم الكويت الى العراق في عام ١٩٩٠، على سبيل المثال، لم يكن بحرية الشعب الكويتي. ولم تكن هيمنة النظام السوري على مقدرات الشعب اللبناني لسنين طويلة محط تأييد وترحيب من الشعب اللبناني. ولم يكن تطبيق نموذج التعاونيات الفلاحية، المكتسب من التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، بقناعة الفلاحين العراقيين ورضاهم. ولم ترتبط الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان في بلد عربي ما بتجربته الوحدوية أو الاشتراكية. بل على العكس من ذلك سادت البلدان العربية الداعية الى الوحدة (كمصر عبد الناصر وسوريا الأسد وعراق صدام وليبيا القذافي)، انتهاكات لمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان أكبر بكثير من تلك التي سادت بلدانا لم تسع ولم تناد بالوحدة كلبنان والكويت والمغرب.

ومن يقرأ كتاب "في سبيل البعث"، الذي يعتبر إنجيل "البعث" أو قرآنه، والذي يضم بين طياته الطروحات الفكرية لمؤسس الحزب ميشيل عفلق، يجده مليئا بالتناقضات والغموض القابل للتأويل بطرق شتى. فتارة ينظر المؤسس الى الدين على انه عامل تفرقة وانقسام في المجتمع كما في النص الاتي:

"العرب لا يريدون أن تكون قوميتهم دينية، لان الدين له مجال آخر وليس هو الرابط للأمة، بل هو على العكس قد يفرق بين القوم الواحد، وقد يورث، حتى ولو لم يكن هناك فروق أساسية بين الأديان، نظرة متعصبة وغير واقعية" (عفلق، في سبيل البعث، ج١: ١٨٨). وتارة يراه عامل قوة واتحاد كما في هذا النص:

"الحزب يعتز اكثر ما يعتز بنظرته الجديدة الى القومية العربية والى الإسلام وعلاقته العضوية بالعروبة، واعتبار الإسلام وفق مفهوم الحزب هو الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم" (عفلق، في سبيل البعث، ج٥: ٦٨). وعليه فلا غرابة أن يقوم النظام البعثي باغتيال عالم الدين السني عبد العزيز البدري في عام ١٩٦٩، وإعدام عالم الدين الشيعي محمد باقر الصدر في عام ١٩٨٠. كما قام بإبادة الآلاف من أتباع المذهب الشيعي ومنعهم من تأدية طقوسهم وشعائرهم الحسينية. ثم اعلن في تسعينيات القرن الماضي ما اسماه "حملة إيمانية" هدفها العودة الى الدين.

ويصف المؤسس عفلق الأمة العربية بالإنسانية والحاضنة لجميع الأقليات القومية والمتفاعلة معها والقارة بكامل حقوقها كما في النص التالي:

"العروبة هي إنسانية، ونحن نفهم من قوميتنا العربية بانها الإنسانية الصحيحة وبانها تقديس لقوميات الآخرين، فنقدس هذا الشعور عند كل شعب آخر" (عفلق، في سبيل البعث، ج١: ١٨٢). ثم ينسى عفلق ما قال ويدمج كل القوميات بقوميته "الإنسانية" كما يتضح من النص الآتي:

"الأكراد هم مواطنون عرب مسلمون كغيرهم من العرب المسلمين. والدول الغربية الاستعمارية هي البادئة بإيجاد الفروق وعوامل التمييز بين العرب والأكراد" (عفلق، في سبيل البعث، ج٥: ص ٣٧). ويتبع عفلق في فلسفته هذه خير الله طلفاح، خال صدام حسين ومن المتنفذين في نظامه. فالأكراد في نظر طلفاح: "إنهم عرب، ولا وجود لقومية كردية" (الزبيدي، ٢٠٠٣: ٢١٣-٢١٤).

هذه النظرة الاستعلائية والإقصائية للمكونات القومية غير العربية سوغت لرجالات النظام البعثي القيام بحملات إبادة جماعية ضد الأكراد بلغت ضحاياها مئات الألوف. ويذهب عفلق الى ابعد من هذا فيقول:

"العمل القومي القابل للنجاح هو ذلك الذي يستثير الحقد حتى الموت تجاه أولئك الذين يجسدون فكرة مضادة للقومية. إن من التفاهة بمكان إن يحارب أعضاء الحركة النظريات، يقولون لماذا علينا أن نهتم بالأشخاص. إن النظرية المعادية لا توجد بذاتها لذاتها، بل تتجسد في أشخاص لا بد من زوالهم لزوالها". ويعلّق حنّا بطاطو على هذا الطرح بقوله: "إن في هذا انزلاقا الى مرتبة التعصب الأكثر إثارة للرعب، وهو يستدعي الى الذهن الأعمال الوحشية التي ارتكبها البعثيون ضد الشيوعيين في العراق عام ١٩٦٣ (بطاطو، ١٩٩٢: ٤٦). وفي الوقت ذاته يستدعي الى الذهن حملات الإبادة الجماعية التي شنها النظام البعثي ضد معارضيه من الشيعة والأكراد باعتبارهم قوىً مضادة للقومية، وتتبنى برامج تخدم قوىً إقليمية وعالمية تتآمر على العراق وعروبته.

وعن الوسائل التي يشرعنها "البعث" للوصول الى السلطة يرى عفلق أن:

"الانقلاب في البعث العربي ليس هو الطريق الصحيح لتحقيق مبادئه فحسب، بل هو أيضا محك واختبار لصدق تلك المبادئ وإخلاص معتنقيها" (عفلق، في سبيل البعث، ج١: ٧٧). وبذلك نجد أن تاريخ "البعث" في سوريا والعراق يكتظ بانقلابات عسكرية نجمت عنها عشرات الآلاف من الضحايا، لا سيما وان الانقلابيين بعد كل انقلاب يشرعون في صراع دموي فيما بينهم للاستئثار بالسلطة والاستحواذ على مزاياها، وانقلاب شباط ١٩٦٣ في العراق خير مثال على ذلك إذ اعترف عفلق نفسه بما آل اليه ذلك الانقلاب من مآسٍ بقوله:

"في العراق كانت القيادة التي استلمت مقدرات انتفاضة رمضان غير مؤهلة، غير ناضجة، وكبر عليها الحمل، ولعب في رؤوسها الغرور، ووقعت فريسة التناحر الصبياني على السلطة" (عفلق، في سبيل البعث، ج٥: ٩٣). وهذه النزعة الانقلابية الشديدة في فكر وسياسة "البعث" جعلت منه حزبا ميكافيلليّا يبرر كل وسيلة توصله الى السلطة مهما بلغت وحشيتها وبشاعتها. وذهب عفلق في فلسفته الانقلابية الى الحد الذي جعل الغاية تمتزج بالوسيلة ولا تنفصل عنها:

"الحركة الانقلابية مسؤولة عن تهيئة أدوات صادقة للانقلاب، أي عن انسجام أعضائها مع نظرتها ومبادئها، وبهذا المعنى نقول أن لا فرق بين الغاية والوسيلة، وان الوسيلة جزء متصل بالغاية ونابع منها، وانها ليست مجرد طريق تختاره للوصول الى الغاية، بل إشعاع من الغاية يعين لنا الطريق الموصل اليها" (عفلق، في سبيل البعث، ج١: ٧٨).

ومن هذا يسهل الاستنتاج أن أيديولوجية "البعث" هي أيديولوجية شوفينية مشوشة وغامضة ولا تترابط أجزائها بشكل علمي مما يجعل باب التأويل والاجتهاد فيها مفتوحا على مصراعيه لكل من يريد بلوغ أهدافه في الوصول الى سدة الحكم. كما وادى غموضها وعدم تناسق أفكارها الى تسويغ مختلف جرائم الإبادة الجماعية ضد كل من يقف في طريق حامليها لتحقيق مآربهم الشخصية.

٣. الخاتمة (Conclusion)

يعود لرجل القانون اليهودي البولوني الأصل رافائيل ليمكن Raphael Lemkin الفضل في إدخال مصطلح الإبادة الجماعية الى القاموس السياسي، ويعود له الفضل كذلك في صياغة أول تعريف للمصطلح. وله الفضل الأكبر في حمل منظمة الأمم المتحدة على إقرار قانون الإبادة الجماعية في عام ١٩٥١. ووفقا للقانون تم تعريف المصطلح بانه "كل عمل يهدف الى تدمير مجموعة إثنية أو عرقية أو دينية، كليا أو جزئيا". وقد أُثيرت عدة ملاحظات حول التعريف والقانون، منها تحديد معنى "التدمير" الذي يرقى لإضفاء صفة الإبادة على جريمة ما، وعدد ضحايا تلك الجريمة. واهم الانتقادات هي تلك التي أثارتها أستاذة العلوم السياسية الأميركية بربارا هارف Barbara Harff والتي تمثلت باقتصار القانون على جرائم الإبادة التي ترتكب على أساس إثني دون تلك التي تُرتكب على أساس سياسي، كجرائم هتلر

وستالين وبول بوت وصدام حسين. واستخدمت هارف مصطلحPolitocide للإشارة الى الجرائم التي ترتكب بحق المعارضين السياسيين للأنظمة التي تقمع شعوبهم.

وقد اختلف المفكرون والاكاديميون في الدوافع التي تقف وراء ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية. فمنهم من عزاها الى الحالة السيكولوجية لمرتكبي تلك الجرائم، ومنهم من اعتبرها خيارا عقلانيا Rational Choice تأخذ به الأنظمة الدكتاتورية والشمولية لاعتقادها بانه الخيار الأفضل لضمان بقائها واستمرارها في الحكم. وهناك من عزا هذا النوع من الجرائم الى المشارب الأيديولوجية للأنظمة والحكّام.

وللإحاطة بجرائم الإبادة الجماعية التي ارتكبها النظام البعثي في العراق منذ انقلابه الثاني في عام ١٩٦٨ وحتى سقوطه في عام ٢٠٠٣، استنتج هذا البحث أن جميع تلك العوامل كانت وراء بشاعة وهمجية الجرائم التي ارتكبها البعثيون بحق مختلف الفئات والجماعات في المجتمع العراقي. فكان للماضي المشوه والطفولة القاسية التي عاشها رأس النظام واغلب مساعديه، وتدني مستوياتهم العلمية والأكاديمية، تأثير كبير في سلوكهم الإجرامي عند تبوئهم مناصب عسكرية وأمنية حساسة في الدولة.

وساهم الوضع السياسي للنظام والتهديدات التي تعرض لها من قبل الأحزاب السياسية في الداخل وبعض القوى الإقليمية والدولية، من خلال تحالفها مع تلك الأحزاب، هو الآخر في دفع النظام الى قمع معارضيه بوحشية كبيرة. فقد اعتبر النظام الأحزاب الكردية وكذلك الشيعية حركات عميلة لصالح قوى إقليمية ودولية، فاستخدم إسلوب العقاب الجماعي ضد مناطقها التي عدّها حواضنا لتلك الأحزاب.

كما وساهمت أيديولوجية "البعث" القومية الشوفينية في تسويغ جرائم الإبادة الجماعية ضد كل من لا ينتمي الى "العروبة" وفق رؤية النظام. فطالما اعتبر ميشيل عفلق، مؤسس تلك الأيديولوجية، الأكراد عربا بسبب وجودهم في بلد عربي. وبنى على أساس افتراضه هذا ضرورة انصياع الأكراد لإرادة الأغلبية العربية. ولتبني "البعث" لاستراتيجية "إبادة العدو"، لم يتوان النظام البعثي عن استخدام كافة الوسائل، بما فيها الأسلحة الكيمياوية، من أجل إبادة من يتصوره حجرا في طريق هيمنته على مقدرات البلاد. وبذلك شهد العراق واحدة من اقسى وأمر مراحل تاريخه على الإطلاق.

المصادر العربية

البيضاني حسن (٢٠٢٠)، "سيرة دم: مختصر لتاريخ القتل في العراق"، دار الكتب العلمية، بغداد

جليل العطية (٢٠٠٩)، "فندق السعادة: حكايات من عراق صدام حسين"، دار الحكمة، بغداد

جواد هاشم (٢٠١٧)، "مذكرات وزير عراقي: ذكريات في السياسة العراقية ١٩٦٧–٢٠٠٠"، دار المدى، بغداد

حيدر مهدي (٢٠٠٣)، "عالم صدام حسين"، منشورات الجمل، كولونيا – ألمانيا

دويتشر اسحق (١٩٦٩)، "ستالين: سيرة ذاتية"، ترجمة فواز طرابلسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بغداد

الزبيدي إبراهيم (٢٠٠٣)، "دولة الإذاعة: سيرة ومشاهدات عراقية ١٩٥٦–١٩٧٤"، دار الحكمة، لندن

الزبيدي، إبراهيم (٢٠٠٣)، "دولة الإذاعة: سيرة ومشاهدات عراقية"، دار الحكمة – لندن

السامرائي، وفيق (١٩٩٧)، "حطام البوابة الشرقية"، دار القبس، الكويت

شربل غسان (٢٠١٠)، "العراق من حرب الى حرب: صدام مر من هنا"، إصدار جريدة الحياة، لندن

عفلق، ميشيل (بلا تاريخ)، "في سبيل البعث"، متوفر على الرابط الإلكتروني:
http://www.albaath.online.fr/index

العلوي حسن (١٩٩٠)، "العراق: دولة المنظمة السرية"، دار روح الأمين، لندن

فولكوغونوف ديمتري، (١٩٩٥)، "ستالين: الواقع والأسطورة"، الجزء الأول، ترجمة حازم حجازي، دار المشرق للطباعة والنشر، نيقوسيا – قبرص

مكيّة كنعان (١٩٩٤)، "القسوة والصمت"، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، كولونيا، ألمانيا

مكية كنعان (٢٠٠٩)، "جمهورية الخوف"، منشورات الجمل، بيروت

English bibliography

Berg Bruce L. (2001), '*Qualitative Research Methods for the Social Sciences*', Pearson Education Company. CA

Fleming Gerald (1982), '*Hitler and the Final Solution*', Berkeley: University of California Press.

Hamann Brigitte (1999), '*Hitler's Vienna: A Dictator's Apprenticeship*', Oxford University Press, NY.

Harff, Barbara (2003), '*No Lessons Learned from the Holocaust? Assessing Risks of Genocide and Political Mass Murder since 1955*', American Political Science Review 97, no. 1 (2003).

Heywood Andrew (2013), "*Politics*", Palgrave Macmillan, New York.

Horowitz, Irving (1997), '*Taking Lives: Genocide and State Power*, 4th ed.', Transaction Publishers, NJ.

Kuper Adam & Jessica Adam (2009), '*The Social Science Encyclopedia*' (3rd. edn.), Routledge, New York.

Langer C. Walter (1972), '*The Mind of Adolf Hitler: The Secret Wartime Report*', Basic Books, New York.

Lemkin, Rafael. (1944) '*Axis Rule in Occupied Europe*', Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International Peace.

Midlarsky Manus (2005), '*The Killing Trap: Genocide in the Twentieth Century*', Cambridge University Press, UK

Post Jerrold M. (2003), ‘The Psychological Assessment of Political Leaders’, The University of Michigan Press.

Singleton, Jr., Royce A., Straits, Bruce C., Straits, Margaret Miller (1993), “*Approaches to Social Research*”, Oxford University Press, 2nd. ed. New York.

Valentino, Benjamin (2004), ‘*Final Solutions: Mass Killing and Genocide in the Twentieth Century*’, Cornell University Press, NY.

Williams Paul D. (2013), ‘*Security Studies*’, Routledge, New York.